صراع بين حضارتين

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

في الفترات الحاسمة من حياة الأمم تزول القشرة الظاهرة التي تستر حضارتها وتخفي حقيقتها ، فتظهر هذه الحقيقة سافرة عارية وتنضو عنها قناعها وبرقعها المضلّل .

ويحلو لنا أن نشبه هذه الفترات الحاسمة في حياة الأمة ببعض المواقف في حياة الفرد، حيث تزول الرقابة العقلية المنظمة وتعتزله الاعتبارات الاجتماعية التي يأخذ بها عادة ، ويعود الى طبعه العميق الأصيل ، فتتكشف شخصيته على حقيقتها ويقفز من أعماق حياته اللاشعورية كل ما في نفسه من غرائز اولية ودوافع أصيلة لا صنعة فيها ولا حياء .

فالفرد كما نعلم يعيش في اكثر الأحيان حياة ظاهرية كاذبة يرعى فيها ما يفرضه المنطق من سلوك ، ويجري مع ما يمليه المجتمع من قيود وحدود . فلا يُظهر من حقيقته إلا رواء ظاهراً هو الرواء الذي يسمح به العقل وتسمح به الرقابة الاجتماعية ، أو هو الماء المقطّر الذي يمرّ من مصفاة المجتمع ومصفاة قواعد المجتمع ، ومن ورائها العقل الاجتماعي. ولكنه في بعض المناسبات الحاسمة يكشف تلك القشرة الزائفة التي اصطنعها وينضو ذلك الوجه الصقيل الذي أتقن تهذيبه وتثقيفه وتزيينه ، فيعود الى طبيعته الأصلية ويأوي الى وجوده الغريزي العميق يمتاح منه كل ما يحتوي عليه من عواطف كثيراً ما تكوّن فجّة ، ومن منازع غالباً ما تكون وحشية حيوانية . وليس من سرف القول ان نقول مع بعض علماء النفس ان الأنا العميقة للانسان تشتمل على أكثر الغرائز بدائية ووحشية ، بل ليس من سرف القول أن نقول ان هذه الأنا العميقة محمّلة بكل ما خلّفه الأجداد الأقدمون الأوائل من غرائز وحشية بل من ميول حيوانية. غير أننا نحب أن نستدرك فنبين أن هذه الأنا العميقة ليست في نظرنا واحدة عند سائر الأفراد وأنها لا تتجلى على خط واحد من الوحشية والقسوة والبدائية ، بل كثيراً ما تتبدى لدى بعض الأفراد الأفذاذ اكثر عمقاً واطيب عوداً .

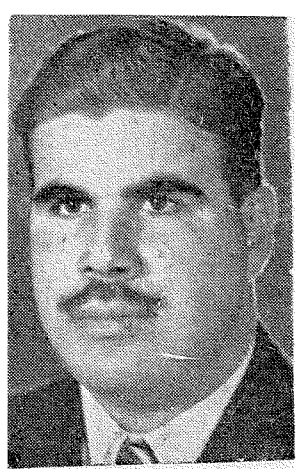

الدكتور عبد الله عبد الدائم

وفي حياة الأمم أيضاً مثل هذا الانقسام بين سلوك ظاهر وجوهر عميق كامن . فيها ، في الأيام العادية ، تلك الحياة التي ترضيك في ظاهرها، وذلك التأنق الذي يعجبك ، وذلك الرواء المصقول الذي يحمل معه ظاهراً من التهذيب والنظام . وفيها بعد ذلك، في الأيام الحاسمة، عود الى طبعها الأصيل، الى حقيقتها الصادقة التي لازيف فيها .

من هذه الأيام الحاسمة في تاريخ الأمم، الأيام التي عشناها في الآونة الأخيرة والتي ما نزال نحيا فيها حتى اليوم . فلا عجب إن رأينا فيها كاشفاً ثميناً لطبائع الأمم المصطرعة ولا عجب إن قذفت لنا باشياء مفاجئة عن خصائص بعض الشعوب.

لقد كنا نكذب أنفسنا منذ سنوات حين كنا نخبر حضارة الشعب الفرنسي وحضارة الشعب الانكليزي ، ونتهيب الحكم السريع على هاتين الحضارتين رغم ما شهدنا من حقائق كانت توحي لنا بما يقنعنا من طبيعتهما . لقد كنا منذ الفترة التي عانينا فيها حياة ذينك الشعبين، والشعب الأول من بينهما خاصة ، ندرك أننا أمام حضارة زائفة كاذبة وأن ذلك الظاهر من النظام والاحتشام والتهذيب ليس الا رواء كاذباً وتشكلا سطحياً زائفاً . كنا ندرك مثلا من خبرنا ببعض الأفراد هناك كيف غدا كل شيء عندهم محكوماً بالكسب وبالكسب في أبشع صوره بل في أكثرها افتضاحاً . وكثيراً ما استبان لنا أن اللطف الذي نلقاه وحسن المعشر الذي نحظى به والنظام الذي نواجهه ما هي الا شباك للصيد والاقتناص وزيادة الكسب وليست عناصر أصيلة في حياة تلك الشعوب. بل كثيراً ما

ألفينا أن وراء ذلك اللطف الذي يحبسه المجتمع وترسمه تقاليده وتوحي به المصالح والمنافع ، فظاظة تتجلى في كل لحظة لا يتدخل فيها المجتمع ولا تلعب فيها المصالح . وكم شبهنا سلوك كثير من الناس هناك بسلوك سجين قننت له الرقابة الاجتماعية تصرفاته فجعلتها مهزلة في ظاهرها وأخفت ما وراءها من عنف وقسوة ووحشية تتحين الفرص للظهور وتنتظر الإفلات من عين الرقيب لتسفر ضارية عارمة .

وكثيراً ما راودتنا منذ تلك الأيام فكرة كنا نجد بعض الحرج في اظهارها ، رغبة منا في الاستزادة من مؤيداتها ، وهي أن الأخلاق التي نلقاها لدى تلك الشعوب والتي لا تخلو في ظاهرها من صدق وحفظ لحقوق الآخرين ، ليست الا ثمرة صنعية من ثمرات النظام الاجتماعي . فالنظام الاجتماعي هناك تبدّى لنا السبب في سيطرة بعض المبادئ الخلقية ، ورأينا في دولاب الحياة الاجتماعية عندهم ما يحمل الى النجاح والكسب عن طريق هذه الخصال الخلقية وما يجعل النجاح عسيراً دون تلك الخصال . وهكذا لم نقتنع بوجود خلق أصيل نابع من بنية الأفراد وتكوينهم العميق ووجدنا الخلق نفسه بنياناً اجتماعياً إضافياً يمكننا ان نطلق عليه الوصف الذي يحبونه هناك فنقول عنه إنه نوع من الـ Superstructure .

وفي الوقت نفسه كنا ندرك منذ ذلك الحين الفارق العميق بين الأخلاق التي نشهدها في تلك البلاد وبين الأخلاق في بلادنا . فبينما كنا نرى الأخلاق في تلك البلاد تتردى وتزل في كل لحظة يستطيع فيها الأفراد الفرار من واجبات النظام الخارجي ومتطلبات اللياقة الاجتماعية ، كنا نرى الأخلاق في بلادنا تشمخ بأنفها وتظهر أبية عزيزة رغم سوء النظام الخارجي ورغم ضعف النظام الأجتماعي . ومن هنا كنا ندرك ان الأخلاق لدى تلك الشعوب مؤسسة اجتماعية تعيش ما بقيت الخيوط الخارجية التي تمسك بها ، وما تلبث حتى تتداعى إذا ما أصاب تلك الخيوط وهن . بينما كنا نرى الأخلاق في بلادنا شيئاً أصيلا عميقاً في النفوس ، ينث الأريحية والتضحية والكرم ، رغم سوء النظام الاجتماعي ورغم عوامل الفساد الكثيرة التي رانت على مجتمعنا خلال عصور طويلة فأفسدت ما أفسدت ولم تترك للخلق متنفساً .

كنا نرى ذلك كله ، بل كثيراً ما كنا نرى بعض الأمور الأخرى التي نطيل مضغها فيما بيننا وبين أنفسنا. كنا ننظر مثلا الى احترام الفرنسي والانكليزي للنظام والقانون ، فنتساءل ماذا يعني ذلك الاحترام تماماً . وكثيراً ما كنا نلقي من أنفسنا جواباً نضمره وهو أن ذلك الحرص على النظام والقانون حرص شكلي آلي أيضاً ، وأنه نتيجة حضارة تعقدت وغدت في حاجه الى آليات تصونها ، وخير آلياتها النظام والقانون . بل كثيراً ما كنا نعتقد أن ذلك الحرص الزائد على النظام والقانون يفصح عن نفوس تحجرت ولم يبق لديها من معالم الانسانية ما يجعلها تصل الى الحياة عن غير طريق من هذا الضابط الخارجي . كنا نرى أن تلك النفوس افتقدت كل تصرف عفوي وكل خلق باطني يمكن أن يؤديا الى بقاء الحياة سليمة ولو غاب النظام ، ولم تجد لها حامياً غير النظام الخارجي والدرع القانوني . وهل يكون النظام نظاماً حقاً اذا لم يكن صادراً عن نظام نفسي داخلي يوجد بينه وبين الأخلاق ؟

وفي مقابل ذلك كنا نرى أن بعض الفوضى التي نلقاها في بلادنا أعلى قيمة من ذلك النظام المصنوع . فالفوضى عندنا — على انكارنا لها وعلى كونها وليدة الفساد الاجتماعي بوجه عام — كثيراً ما تخفي وراءها خلقاً وروحاً إنسانية ، بل كثيراً ما تكون ثمرة لها . منذ أيام كنا نتحدث في المذياع عن ذلك الموظف في الترام الذي حاول أن يعفينا من دفع أجرة الركوب لأن المسافة التي نود ان نقطعها قصيرة. وكنا نوجه اللوم والنقد الى ذلك الموظف ولا نرى من حقه ان يتعدى على القانون ويبيح ركوب الناس بلا أجر اذا كانت المسافات قصيرة . بل كنا نقول ان مثل هذا العمل سرقة للدولة . وما زلنا اليوم عند رأينا . ولكننا — رغم إنكارنا لهذا العمل — نحب أن نكشف عما وراءه ، ونجد من التجني أن ننظر اليه نظرة خارجية شكلية صرفة . فوراء هذا العمل فيما نعتقد عاطفة إنسانية نبيلة لم توجّه التوجيه الصحيح . ولكنها على أية حال عاطفة نبيلة . إنها عاطفة بدائية دون شك ، ولكنها تصدر عن رغبة خلقية في قياس الأمور بمقاييس انسانية لا بمقاييس قانونية فقط ، وعن نزعة الى تحميل القانون بعض المعنى الانساني . فلقد شق على ذلك الموظف أن يتكبد الراكب أجرة كاملة من أجل مسافة قصيرة ، واعتبر اعفاءه عوناً إنسانياً له . ان في نظرته ضعفاً في التكوين الخلقي العام ، ولكن فيها قوة فيما نعتقد من حيث دلالتها الانسانية . اليست

القوانين في الأصل استجابة للحاجات العميقة للناس ؟ اليست قيمتها في روحها ومعناها لا في نصها وشكلها ؟

واليوم بعد أن وقعت المعركة وجدنا في حوادثها ما يؤيد كل ما ذهبنا اليه. **فالمعركة كما قلنا كشفت عن الحضارة الحقيقية للأمم المتصارعة وأظهرت حقائقها سافرة عارية. إنها وكدت من جديد : أن تلك الحضارة الفرنسية والانكليزية قد انتهت بعد ستوات من الترف ومن التحكم في الناس إلى أن تكون قشرة ظاهرة تخفي وراءها كل معاني التأخير الحضاري. فالحضارة لا تقوم بلا حياة انسانية أصيلة تقر في نفوس الشعب المنتسب اليها** . ومثل هذه الحياة الانسانية الأصيلة ومثل هذه الدوافع الخلقية النبيلة تتبدى لنا بعد المعركة بعيدة كاشد ما يكون البعيد عن كيان هاتين الحضارتين . وهذا الشيء وحده هو الذي يفسر لنا في نهاية الأمر ما وجدناه لديهما من افتراق للمنطق وللشرعة الدولية وللأخلاق الانسانية . فلقد دعتهما الأزمة الى التحلل من الأبراد السطحية التي تلبسانها والى اظهار الكيان العميق الثاوي وراء تلك الابراد بما فيه من همجية وهزء بالخلق وانتهاك لحرمة الانسان .

اطلبوا « الآداب »

في الدار البيضاء (مراكش)

من

مكتبة الزيات

شارع مناستير ١١٨ — ١١٦ — ١١٤

« إن المتأمل لمصر العربية أيام المعركة ، والمشاهد لبطولات بور سعيد ، والمتلمّس لروح الكرامة العربية التي انطلقت في كل قطر عربي ، يفهم اليوم معنى الروح الانسانية العميقة الاصيلة في نفس الشعب العربي ، وما تحمله من قوى تتفجّر سخيّة ثرّة في المناسبات الحيوية . »

لقد عجب الكثيرون — ممن خدعوا طويلا عن حقيقة هذين الشعبين وظنوا خلال سنوات أن في حضارتهما شيئاً انسانياً عميقاً — عندما رأوا ما رأوا أيام المعركة وعندما قرأوا ما قرأوا بأقلام كثير من كتاب تلك البلاد ، وهالهم ان ينقلب ذلك الفكر الناعم في ظاهره ، الوديع في محاكماته ، المهذب في منطقه واقيسته ، فكراً اهوج لا يعرف للمنطق حرية ولا يقيم للمحاكمات والأقيسة وزناً . وحاروا كيف يفسرون هذا الانقلاب العميق فيما حسبوا . وتفسيره عندنا يسير هين وهو أن ما عرفوه من حضارة ذينك الشعبين زائف في أصله ، وأنهم لم يلمسوا في تجربتهم معهما سوى الظاهر الخداع والبهرج المزيف .

والمعركة ، إذ صدّقت ما نعتقد به حول حقيقة هذين الشعبين ، صدقت في الوقت نفسه عقيدتنا العميقة حول حقيقة شعبنا العربي . **فهي قد أتاحت أيضاً للشيء العميق في نفوسنا أن يظهر ، وكشفت عن الجوهر الكامن وراء قشرتنا الاجتماعية الفاسدة . فلقد وكدت من جديد تلك الحقيقة التي طالما آمنا بها وهي ان العنصر الانساني العميق ثاوٍ في نفس العربي ولا يحول بينه وبين الانطلاق سوى سجن أوضاعه الخارجية . ولقد قدمت الدليل القاطع على أن هذا الركود الذي يتبدى عندنا في أيامنا العادية محمّل بثورة انسانية عميقة تلمع فيها التضحية والاريحية والشمم .**

فالمتأمل لمصر العربية أيام المعركة والمشاهد لبطولات بور سعيد والمتلمس لروح الكرامة العربية التي انطلقت في كل قطر عربي غدا يفهم اليوم فهماً لا مرية فيه معنى الروح الانسانية العميقة الأصيلة في نفس الشعب العربي ، وما تحمله من قوى تتفجر سخية ثرّة في المناسبات الحيوية . على ان الأيام الأخيرة التي عاشها الشعب العربي الحديث ليست في الواقع الدليل الوحيد الذي ثبت هذه الحقيقة . فلقد مرت بهذا الشعب منذ قرون محن كثيرة مع الاستعمار كان يتبدى فيها دوماً ، بين الحين والحين ، قوياً في انسانيته ، شديداً في

حرصه على حريته ، صادقاً في تضحيته في سبيل أقرانه وفي سبيل أحفاده . إن الثورة المصرية أيام سعد زغلول ومصطفى كامل ليست عنا ببعيدة . والثورة السورية تطل علينا من الأمس القريب . ومثلها الثورات الكثيرة والحركات العديدة التي ظهرت وما تزال تظهر على أرض العرب . وهل بعد ثورة المغرب العربي ، وعلى رأسه الجزائر العربية ، من حاجة الى اثبات بطولة شعب يتحد لديه تعشق الحرية باسمى معاني الانسانية والخلق الانساني

سوى أن المعركة الأخيرة ، لما اتصفت به من أوصاف خاصة نادرة ، كانت دليلا حاسماً قاطعاً على أصالة هذه الروح العربية الانسانية . لقد حلقت في سماء مصر وفي سماء البلاد العربية الأخرى روح الكرامة وبرزت التضحية في خير صورها وأشكالها وظهر الخلق العربي ، خلق الايثار والفداء والأريحية ، رائعاً ساطعاً .

فهل نغلو بعد هذا إن قلنا إن الصراع بيننا وبين المستعمرين الفرنسيين والانكليز صراع بين حضارتين : حضارة زائفة تحمل في ظاهرها النظام والخلق والتهذيب ، وتخفي في باطنها الفوضى النفسية والعقلية وضروب الوحشية البدائية ؛ وحضارة أصيلة ظاهرها الفساد والتأخر ، وباطنها الايمان بالانسان والتضحية في سبيل حرية الانسان ؟

هل نغلو إن قلنا ان هذه البلاد العربية التي توصم بالتأخر ، ومن ورائها الشعوب الأسيوية السائرة في طريق التحرر ، هي المدعوة الى حمل الرسالة الانسانية الى العالم ، الرسالة الحقة التي لا تقوم على الغلبة ، وانما تقوم على الاحترام العميق لحقوق الانسان وعنصر الانسان ؟ انها هي القمينة بأن تحمل على راحتها معاني الحق والخلق ، ما دامت هذه المعاني عندها شيئاً أصيلا يتحرك في أعماقها رغم الفساد ، وما دامت عند أعدائها زيفاً تتكشف وراءه غرائز الوحوش .

دمشق — **عبد الله عبد الدائم**

المكتبة الشرقية

ساحة النجمة - بيروت

تقدم الى القراء

احدث المنشورات الادبية
الصادرة في مختلف البلاد العربية